الفلسفة العربية

ما أخذت وما أعطت

لطانيوس موسى

— ٢ —

لم يكن بد قبل الدخول في لب هذا البحث من الاشارة الى الذين شادوا أركان الفلسفة العربية وكانوا بناة مجدها وشهرتها وماكانت اشهر آرائهم ومذاهبهم . وقد أتينا على أهم تلك الآراء في القسم الاول من هذا المقال بقدر ما سمح به المجال

اما موضوع المقال وهو « ما أخذت الفلسفة العربية وما أعطت » فقد تقدم القول أن الفلسفة العربية كنظيرتها الفلسفة اللاهوتية (Scholasticism) في بلاد الغرب لم تطلع بمذهب جديد ولا اتخذت لنفسها طريقة خاصة بل كان ما جاءت به منقولاً عن فلاسفة اليونان . وقد أخذ العرب عن هؤلاء جميعهم فلم يدعوا فيلسوفاً لم ينقلوا عنهُ من طاليس الى أريسطاطاليس الى افلوطينوس وبروكلس من زعماء الافلاطونية الجديدة . ولكن جلّ اعتمادهم كان على المذهب الافلاطوني الجديد لانهُ اكثر موافقة لنزعتهم الدينية

على أنهُ وان كان الفلاسفة العرب لم يستقلوا بمذهب خاص يعرفون به فقد كانوا كما تقدم أعظم الشارحين للفلسفة اليونانية واكثرهم دقةً وتحقيقاً . وانما كان بفضل شروحهم هذه ان انتشرت الفلسفة وذاعت في الاقطار شرقاً وغرباً كأنما بثت على أيديهم من مرقدها فكان عليها المعوّل في كثير من معاهد الفلسفة والعلم طيلة القرن الثالث والرابع عشر الى أواخر الخامس عشر تقريباً حين بدت طلائع الفلسفة الحديثة والعلم الحديث في مستهل القرن السادس عشر فضربت حجاباً كثيفة على جميع الفلسفات القديمة والوسطى والفت معظم مذاهبها ونظرياتها

إن من يراجع آراء فلاسفة العرب ومذاهبهم المختلفة يجد بينها كثيراً مما لهُ قيمة فلسفية كبيرة ولكن الفلسفة الحديثة ومكتشفات العلم الحديث قضت على معظمها كما قضت على كثير من نظريات الفلسفة اليونانية . الاّ ان من يمعن النظر يرى بينهما بشيء اشارة واضحة الى أهم مبادىء

الفلسفة الحاضرة وأشهر مذاهبها. وهذا ما قصدت بالاشارة اليه بقولي «ما أعطت الفلسفة العربية» صارفاً النظر عما لا أثر لهُ او صدًى في الفلسفة الحديثة

فمن هذه الآراء ما ذهب اليه زعماء المدرسة الشرقية مثل الفارابي وابن سينا من وجوب تقرير الحقائق الفلسفية بناء على درس نواميس الطبيعة ومراقبة مجاريها وأحكامها. وهذا ما يمتاز به علماء العصر المجددون من أهل الغرب للفيلسوف الانكليزي باكون مع انهُ تقدمهُ فيها كثيرون غيرهُ مثل روجر باكون وأوكام وغليليو. ولكن الفارابي وابن سينا سبقوا جميع هؤلاء الى تقرير هذه الحقيقة بثبات السنين

ومنها قول أبي الوليد ابن رشد بأن في المادة نفسها قوة طبيعية لتوليد صور الاشياء (formes) اي ان هذه الصور تحصل بسبب قوة كامنة طبيعية في المادة نفسها. وهو يخالف بذلك مذهب أرسطو القائل ان صور الاشياء تحلّ في المادة بقوة من الخارج. أليس في رأي ابن رشد هذا من النظر العلمي ما فيهِ ولا سيما لمن لم يعرف شيئاً عن النشوء الطبيعي في مذهب المتأخرين

ومنها رأي ابن سينا والفارابي في الكون وقسمة الوجود الى واجب وممكن. وهذا من البراهين التي اعتمدها الفيلسوف الالماني الكبير كانت (Kant) وأطلق عليها اسم البراهين الكونية [1] (cosmological proofs) على وجود الخالق جل وعلا

يزعم ابن سينا والفارابي ان الاشياء الطبيعية ليست من الامور الضرورية حتماً اذ من الجائز ان يوجد غيرها بدلاً منها. فهي اذاً من الاشياء الممكنة لا الواجبة الوجود. والممكن يستدعي او يقتضي بطبيعة الحال وجود ما هو واجب الوجود بذاته ليكون سبباً او علة لوجوده. فالواجب الوجود بذاته هو الخالق جل جلاله ولا أحد سواه. وكل ما عداه فهو في دائرة الممكن. وقد أفاد هذا الرأي الفارابي وابن سينا كثيراً اذ تخلصا بهِ من القول بأزلية المادة تبعاً لرأي ارسطو وهذا مناف لمقتضى التعاليم الدينية كما تقدم

ولابن جبرول الفيلسوف العربي (١٠١٠ — ١٠٧٠) الذي اشتهرت فلسفتهُ عند علماء الغرب وكان له المناظرات الشديدة اللهجة مع اعظم فلاسفتهم فكان لهُ منهم الانصار والخصوم، آراء ذات قيمة فلسفية كبيرة تدل بأوفى بيان على أسمى مبادىء الفلسفة في هذا العصر

فمن تلك الآراء ما ذهب اليهِ من اتحاد العنصرين العقلي والمادي في مادة واحدة عامة اذ

---

(١) أما البرهان الثاني من هذا النوع الذي اعتمده كانت فهو مذهب أرسطو من حيث السبب او المحرك الاول. يقول أرسطو ان كل حركة في الكون لا بد لها من محرك. فاذا تتبعنا سلسلة الاسباب او المحركات وجدنا انه لا بد لنا من الوقوف عند السبب او المحرك الاول غير المتحرك. فالمحرك الاول في اعتقاد أرسطو هو الباري جل جلاله

قال ان المادة الحيولية والمادة الروحانية ليستا سوى جزئين من المادة العامة وقد اثبت على ذكر هذه النظرية مفصلاً في مقال نشرتهُ مجلة المقتطف الغراء في عدد حزيران (يونيو) من السنة الماضية تحت عنوان « بين اسبينوزا وابن جبرول » وفيه اشارة كافية الى وجه الشبه في مذهب الاثنين في المادة الاصلية[1]

وقد ورد في المقال نفسه ايضاً نظرية ابن جبرول في الارتقاء الطبيعي وكيفية ذلك الارتقاء وهو بحث لم يتناوله اهل الغرب الاَّ بعد القرن السابع عشر . قال ابن جبرول « ان المادة الطبيعية (يريد مادة الكون الاصلية) اي الجوهر المنتشر يتحرك ليتخذ صورة العناصر الاربعة ثم يرغب في اتخاذ صورة الجماد ثم النبات ثم الحيوان . ثم يطمح الى الامتزاج بالعقل والارتفاع الى ذلك العقل العام الذي هو منتهى كل الارتقاء واليهِ تنتهي كل حركة » . واننا اذا تأملنا هذا القول على ما فيه من بساطة المعنى والتركيب واعتبرنا الوقت الذي قيل فيه لم يسعنا الاَّ اكبار هذا الرأي وانزاله منزلته من المكانة والاعتبار

ولابن جبرول فكرة اخرى جديرة بكل اعجاب وهي اعتقاده في الارادة وايراده اياها كاحدى علل الوجود ومبادئه . فقد جاء في خلاصة مذهبهِ قوله « ان للكون ثلاثة مبادىء الوحدة الخالصة وهي الخالق . ثم المادة والصورة وهما العالم . ثم الارادة وهي الواسطة بين العلة السامية ومفاعيلها » . ان الارادة كما يعلم المطلعون هي المبدأ الاول للوجود في مذهب الفيلسوفين شوبنهور وهارتمان وغيرهما من فلاسفة القرن التاسع عشر (will to live,) أو ليس ان ارادة او حب البقاء سناء في نظر المحدثين وعلماء العصر تنازع البقاء ؟ فاما ان تكون ظهرت هذه الفكرة في عصر ابن جبرول على ندرة المادة العلمية في ذلك العهد فذلك امر يستحق الذكر بل الاعجاب . ثم ولئن كان نظر ابن جبرول في الارادة يختلف عن وجهة نظر هارتمان وشوبنهور لجوهر الفكر واحد والفضل للمتقدم . ولا حاجة بنا الى القول ان نظرية شوبنهور هذه في الارادة هي من أشهر مذاهب الفلسفة في وقتنا الحاضر

ومن مأثور اقوال ابن باجه الذي عرفهُ الافرنج باسم (Avempace) قولهُ في الخلق الاجتماعي في الانسان نقلاً عن كتابهِ تدبير حياة المتوحد « ان بين الانسان والحيوان نسبة كما بين الحيوان والنبات وبين النبات والجماد . فما اختصَّ من الاعمال بالانسان وكان صحيح النسبة اليه هو ما صدر عن ارادة مطلقة اي عن ارادة مصدرها التبصر لا ما صدر عن مجرد الهداية الطبيعية كما في الحيوان . مثال ذلك: الانسان كمن حجراً لكونهِ صدعهُ فهو عمل حيواني

(١) ان هذا الرأي ينسبه الفرنسيون الى الفيلسوف الهولندي اسبينوزا ولكن ابن جبرول تقدمه بمئات السنين كما اشرنا الى ذلك في المقال المذكور

فلو كبره كي لا يصدع غيره لكان عملاً انسانيًا . وقلما فعل الانسان افعالاً حيوانية محضاً وكثيراً ما فعل افعالاً انسانية محضاً فعلى المنزل ان يفعل ما كان من النوع الثاني ويحترز من مطاوعة النفس الحيوانية ولا يكون دليله الا النفس المدركة ، وبفضل الافعال المستقيمة على النافعة حتى اذا تبارت فيه النفس العقلية والحيوانية تسبق الاولى الثانية سبقاً بيناً . ويعنى باصلاح صفاته الادبية فتصير اعماله اقرب الى الالهية منها الى الانسانية ، فاذا جرى المنزل على هذا السنن فانهُ يتدرَّج في الوصول الى معرفة العالم الروحاني وهي غاية سعيه »

ألا يجد القارىء في هذه العبارة اوضح دلالة على مبدإ الغيرية altruism في حياة الانسانية الاجتماعية والغيرية هي اظهر صفات الخلق الاجتماعي في الانسان كما لا يخفى

هذا أهم ما وقفت عليه في نظريات فلاسفة العرب وآرائهم مما لهُ أثر بيّن في الفلسفة الحديثة وكان من وضعهم ولا أصل لهُ في الفلسفة اليونانية . وما أدرانا ان الفلاسفة المحدثين من أهل الغرب لم يأخذوا بعض الاصول والمبادىء في فلسفتهم الحاضرة من الفلسفة العربية . فربَّ فكرة صغيرة تقلبت مع الايام فصارت مذهباً خطيراً . وربَّ حادث يسير حوَّل مجرى تاريخ مملكة بأسرها . فعسى ان يوافينا بعض ذوي الاطلاع بشيء من هذا النوع استيفاءً للبحث وتتميماً للفائدة . على اني أرى أديبنا العربي يستطيع ان يروي من الذاكرة مئات الابيات من الشعر لشاعر واحد وقد يقضي الساعات يحلل بيتاً من الشعر ليتبين مواطن القوة والضعف فيه . انهُ قد يفعل ذلك وربما كان لا يعلم انهُ قام في تاريخ الامة العربية أفراد كالفارابي والغزالي وابن باجة وابن الطفيل من أعلام الفكر وأقطاب الفلسفة . فهل يقلب لنا المستقبل صفحة جديدة من المجد والاهتمام فنقبل على ذلك المورد العذب من آثار فلاسفتنا الاعلام نستقي آيات الحكمة الشرقية ونجتني ثمرات تلك العقول الفياضة بالمعرفة والاختبار . هل نفعل ذلك انصافاً لانفسنا واحياءً لذكر فلاسفتنا العظام الذين عرف ابناء الغرب قدرهم فأجلوهُ وأكرموهُ وجهلناه نحن فكان جهلنا علينا خساراً

***

ان القرن العشرين هو عصر اليقظة والتسامي لمعرفة حقائق الكون الكلية وعدم الركون الى الامور السطحية او اللهي والاشتغال بالاشياء القليلة الجدوى . هذا هو الطابع الفلسفي العلمي للقرن العشرين فعسى ان يكون لابناء الاقطار العربية حظ من هذه اليقظة العامة كيما نستطيع ان نحيا أفراداً وجماعات الحياة المستنيرة المثلى ونكون أعضاء عاملين حقًّا في جسم هذا المجتمع العظيم

الدكتور محمد اقبال

أكبر شعراء الهند المسلمين في الوقت الحاضر

رسالة شعره

للسيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي

—٣—

اما الجمود وهو ترك الدين الذي هو عنده بمنزلة الروح في هيكل الاجتماع الاسلامي أو الانسلاخ عن الماضي ، والانجراف في سيل الغرب ، فيرى انهُ خطر مهدد لكيان الهيئة الاجتماعية الاسلامية واكبر دليل على العجز وفتور العزيمة ، اذ به يزدري المرء ماضيهُ ،ويحتقر متاعه، ويصغر نفسه . فتسلا أرجاء قلبه بظلمة الغير ، ويحتل جوانب نفسه أعمال الاجنبي . فلا يرى الخير الاَّ في محاكاته ، ولا النجاح الاَّ في تقليده فيموت استعداده للخلق ، وتفنى كفاءتهُ للابداع . لذلك ينشدهم:

« اني ارى عند المسلم التقليد والظن
فروحي ترتعش في جسمي في كل وقت
خشية ان يحرمه (الله) يوماً
ويلقي حرقة (حبه) في قلب النير »

وقال ايضاً : « وان كان عند الفرنجي اساليب كثيرة
ولكني لم استفد منهُ الاَّ العبرة
يا من اصبحت اسيراً في تقليده ! كن حرًّا !
امسك ذيل القرآن وكن حرًّا ! »

وقال ايضاً : « مزق قميص التقليد
لكي تعلم به التوحيد »

وقال ايضاً : « أن صاحب القلب الحي يخلق الاعصار والدهور